يشبه المطلق أو اداة تحقق العقل المطلق في فلسفة هيغل. ولعل هذا يعود الى تجربة المانيا مع وضع التجزئة الذي دام طويلاً، وعاق نموها، في معظم القرن التاسع عشر. وقد أصبحت الدولة هي الاطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي ان يعبّر عن نفسه خلاله؛ ثم تطور مفهوم الدولة القومية ودخل اليه عنصر مسيحي ديني، واختلطت القيم الدينية بالقيم القومية، بحيث تطلّب الانتماء الى الشعب العضوي الالماني الانتماء الى المسيحية البروتستانتية (وقد نتج عن ذلك تنصُّر اعداد هائلة من يهود المانيا. وقد وصلت النسبة، أحياناً، الى ما يزيد على ٥٠ بالمئة من كل يهود برلين، أي معظم يهود المانيا في أواخـر القرن التاسع). ثم تطور هذا المفهوم، فيما بعد، بحيث أصبح الشعب العضوي شعباً بمقدار انتمائه الى عرق واحد. وقد ساندت ذلك مجموعة من «الابحاث العلمية» والدراسات المختلفة التي تضفي على هذه الاساطير مسحة علمية وفي اطار الصياغة العرقية لمفهوم الشعب العضوي، أصبح الطريق مسدوداً، تماماً، أمام أعضاء الاقليات (السلافية واليهودية) في المانيا.

وقد شهدت اوروبا، آنذاك، انتشار الافكار الداروينية الاجتماعية، وفلسفة نيتشه التي لاقت ذيوعاً شديداً، بحيث أصبحت شعارات، مثل «البقاء للاصلح»، دليلاً للعمل ونسقاً اخلاقياً مقبولاً في كل العالم الغربي. وبدأت عملية الاستبعاد، انطلاقاً من فكرة الشعب العضوي، تكتسب شراسة ووحشية غير عادية. وقد طبقت هذه الشعارات على الشعوب «المتخلفة» في آسيا وافريقيا، كجزء من المشروع الاستعماري الغربي هناك. ولذلك، لم يكن هناك ما يمنع، من الناحية الاخلاقية والسياسية، من تطبيقها في اوروبا، حينما اتجه المشروع الاستعماري الالماني الى «مجاله الحيوي» في أوروبا السلافية.

ولكن، لعل السياق الحضاري العام في الغرب، وهو الاطار الذي تمّت فيه عملية الابادة، هو، في نهاية الامر، الذي جعل الابادة النازية لليهود أمراً مقبولاً ومستساغاً. فالحضارة الغربية الحديثة علمانية تُعلي قيم المنفعة والكفاءة والانجاز والتقدم، وتتخلّى عن أي قيم مطلقة؛ وهي تنظر الى الانسان، لا باعتباره مطلقاً، وانما باعتباره «مادة بشرية» محايدة (وهذا اصطلاح صهيوني ونازي شائع) توظَّف في هذا الغرض، أو ذلك، ويُحكم عليها بمقدار نفعها، أو عدم نفعها. وقد تبنّت الحركة النازية هذه الايديولوجية النفعية العلمانية، وقامت بتطبيقها، بشكل ثوري شامل، على كل البشر. فقسم الالمان انفسهم الى نافعين وغير نافعين؛ أما النافعون، فهم المنتجون؛ واما غير النافعين، فهم كل المعوقين والعجزة الذين وصفهم هتلر بأنهم «آكلون (للطعام) غير نافعين». وانطلاقاً من هذا، كان من الواجب التخلص منهم من طريق الابادة. وقد شيدت افران الغاز، في البداية، لهؤلاء الالمان، وابيد منهم حوالى ٧٠ الفاً. ولكن تحت ضغط الرأي العام الالماني، تراجع النظام النازي؛ ثم قام بتطبيق المعيار ذاته على الجنود الجرحى في الحرب؛ اذ أن عملية علاجهم كانت سوف تكلف الدولة الكثير.

ومن الموضوعات الاساسية في الادبيات الصهيونية، والادبيات الغربية، بخصوص اليهود، هو مدى نفعهم. وقد طرحت القضية مع عصر التنوير؛ اذ تمّ الحديث عن عتق اليهود ومنحهم حقوقهم السيـاسيـة والمدنية لأول مرة في الحضارة الغربية، في اطار نفعهم؛ فكلما ازدادوا «نفعاً» ازدادت الحقوق الممنوحة لهم. ثم ظهرت القضية، مرة أخرى، في الادبيات الصهيونية؛ اذ كان عدد كبير من يهود المانيا من يهود شرق اوروبا الذين لفظهم الغيتو، ولم تستوعبهم مجتمعاتهم أو أي من المجتمعات الاوروبية الاخرى، والذين لم يكن عندهم كفاءات حديثة تجعل منهم «آكلين نافعين». وقد طرحت الصهيونية نفسها على انها الايديولوجية التي سوف تقوم بتطبيع اليهود وتحويلهم الى عنصر منتج، أي الى عنصر نافع، فالحضارة الغربية، بكل قطاعاتها، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار، بمن في